



في رحاب التوراة

دراسات وجواريات روحانية مُعمّقة في النصوص التوراتية الأسبوعية مع
الحاخام جوناثان ساكس

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

Sponsored by The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University

Jonathan Sacks
THE RABBI SACKS LEGACY



The Original text in English and translations to other languages can be found here:
<https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation/noach/the-courage-to-live-with-uncertainty/>

"نوح" هو النصّ الأسبوعي الثاني من سفر بربيشيت (سفر التكوين). يبدأ هذا النصّ بالآية التاسعة من المقطع السادس، وينتهي بالآية الثانية والثلاثين من المقطع الحادي عشر.

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

جُرأة الحياة مَعَ اللّايقين

لِكُلِّ مَنْ مَرَّ بِمَراجِلٍ مُختلفةٍ في حياتِهِ الروحية، مَراحِلُ تُغيِّرُ الاتجاه الذي تَسير به حياتنا لكي تَضَعنا على مساراتٍ جديدة، وبالنسبة لي شخصياً فقد عَشْتُ لحظة التغيير تلك عندما كُنْتُ طالباً في مدرسة يهودية حاخامية وهي كَلية اليهود (Jews' College)، وحينها حظيتُ بِشرف التلمذة على يد واحدٍ من أعظم علماء التوراة في عصرنا الحديث، الحاخام الدكتور نَحوم رابينوفتش طَيَّب اللهُ ذِكره من بين الصّالحين.

لقد كان هذا الحاخامُ عالِماً فذاً بكل ما تحمّله الكلمة من معنى، كما كان واحداً من أبرز المُفكرين المُعاصرين الذين اتبعوا نهج الحاخام الكبير موشيه/موسى بن ميمون وتعمّقوا في أفكاره ومؤلّفاته، كما كان مُلمّأً بالقضايا العلمانية والقضايا اليهودية الدينية على حد سواء، والأهمّ من هذا كلّهُ أنه كان من أجراً المُشرّعين اليهود وأكثر القضاة الشرعيين خُروجاً عن المألوف (يوسكيم باللغة العبرية تعني القضاة الشرعيين)، وهذا ما يبدو جلياً في أجزاء مؤلّفاته في مجموعة "Responsa" (بمعنى الأسئلة الدينية والردود عليها)، وهو أمرٌ قلّمنا نراه في وقتنا الحالي مع الأسف الشديد.

وفي أحد الأيام كان الحاخام نَحوم رابينوفتش يُعطي درساً دينياً توراتياً كعادته، ولم يكن ذلك الدرسُ مُرتبطاً بأي حدثٍ مُميز على وجه التحديد، بل كان درساً اعتيادياً من ضمن دروسه الأسبوعية "دِفريه توراه" التي تطرّق فيها إلى موضوع برّاشات نوح (أي نصّ نوح من سفر التكوين).

لكن ما كان استثنائياً حينها هو القصص والاقتراسات التي كان يستحضرها ويستشهد بها من المِدراش*، خاصة وأنه من الصعب جداً إيجاد هذا المِدراش نفسه، فهو يظهرُ في كتاب يُعرف بكتاب "تَنحوما بوبر" (Buber's Tanhuma) الذي نُشر عام 1885م على يد شلومو بوبر (جَد الفيلسوف اليهودي المعروف مارتِن بوبر)، وهذا المِدراش يتضمن عدداً من أقدم المخطوطات الدينية اليهودية التي تعودُ إلى القرن الخامس للميلاد، والمُحتوى الواردُ في هذا الكتاب يتداخلُ كثيراً مع محتوى مِدراشٍ قديم لا نمتلكُ نَصه الكامل، ويُعرفُ باسم مِدراش يلمِدينو.

وعلى أي حال، فإن النَّص الذي اقتبسهُ من القصة مكوّن من جُزأين، ويتضمّن تفسيراً لما قاله الله عزّ وجلّ مخاطباً نوح في الآية السادسة عشر من المقطع الثامن من سفر التكوين حين أمره قائلاً: "أَخْرُجْ مِنَ الْفُلكِ"، وهُنَا يُعَلِّق المِدراش:

"يتساءلُ نوحُ بينه وبين نفسه قائلاً: بما آتَى دخلتُ الْفُلك (السفينة) بإذنٍ من الله عزّ وجلّ، فهل يجبُ عليّ مغادرته بإذنٍ منه أيضاً؟"، وهُنَا يقولُ اللهُ عزّ وجلّ ردّاً على تساؤلِ نوح: 'هل تنتظرُ إذناً مِنِّي بالخروج؟ إن كنتَ كذلكَ فما أنا أمنحكُ إذناً بالخروج، حينها يقولُ اللهُ لنوح: "أَخْرُجْ مِنَ الْفُلكِ"."

وفي هذا السياق يذكُر المِدراش ما قاله الحاخام يهودا بار إيلعاي تعليقاً على ذلك الموقف: "لو كنتُ في الْفُلك لحطّمت بابَ الْفُلكِ وخرجتُ منه على الفور!"¹

ويوضّحُ الحاخام نحوم رابينوفتش أن الدرس الهامّ الذي ينبغي علينا تعلّمه من هذا الموقف هو أنه عندما يتعلّق الأمرُ بإعادة بناء عالمٍ مُحطّم فلا يجبُ علينا أن ننتظرُ إذناً من أحدٍ للقيام بذلك، لأن الله عزّ وجلّ قد منحنا الإذن سلفاً، وما يتوقّعه اللهُ مِنّا هو أن نبادرَ ونمضي قدماً في عملية البناء.

وبطبيعة الحال فإن هذا الدرس العظيم يُعدُّ واحداً من أبرز القيم والتقاليد اليهودية القديمة التي ذكرها الحاخام شلومو يتسحاقي (المعروف باسم الحاخام راشي) في تفسيره للآية التاسعة من المقطع السادس من سفر التكوين، بل ويُعتبر موضوعاً مركزياً أكد عليه كبار الحاخامات من أجل معرفة السبب الذي جعلَ أفرهام/ إبراهيم عليه السلام الأبّ الأوّل للأمة اليهودية، لا نوح، فتقول هذه الآية: "في طاعةِ اللهِ سَلَكَ نوحٌ"، في حين قال اللهُ مخاطباً أفرهام: "أنا اللهُ الْقَدِيرُ، سرّ أممي" (الآية الأولى من المقطع السابع عشر). بالتالي لم تكن تلك الفكرة رائعةً بقدر روعةٍ تفسير المِدراش لها.

فجأة أدركتُ بأن فكرة المُبادرة إلى البناء والإصلاح تحظى بأهمية كبيرة جداً في الديانة اليهودية، إذ يجبُ أن يتمتّع المرءُ بالجُرأة الكافية حتى يكون ريادةً ومُبادراً للتجديد، بل ويجبُ عليه أن يسلك الطريق الذي لا يسلكه غالبية البشر والمضَيّ قُدماً نحو المجهول، وهذا بالفعل ما حدث مع أفرهام وسارّه عليهما السلام حين رَحَلَا من أرضهما وأرض آبائهما وأجدادهما، وهذا أيضاً ما قام به بنو إسرائيل اليهود في عهدِ رسولِ اللهُ ونبيّه موشيه/موسى عندما خرجوا من أرض مصر إلى التّيّه ومَضُوا نحو المَجْهول مُستعينين بعمود سحابٍ يقودهم نحو وَجْهَتِهِمْ في وَضْح التّهارة، وشعلة نارٍ تقودهم إليها في ظُلْمَةِ الليل الحالك.

* ملاحظة توضيحية من المترجم: المِدراش هو مصطلح يُشيرُ إلى التفاسير اليهودية الموسّعة للكتاب اليهودي المُقدس (التناخ)، بحيث تستندُ هذه التفاسير إلى نمطٍ حاخاميّ شائع الاستخدام في كتاب التلمود (التلمود هو النصّ المركزيّ في الحاخامية اليهودية ويعدّ المصدر الأساسي للديانة اليهودية وللشريعة اليهودية المعروفة باسم الهلاخاه). ومن ناحية لغوية فإن كلمة مِدراش تعني تفسير النصّ بالنصّ، كما تعني أيضاً الدّراسة، وهي مُشتقة من الجذر "د.ر.ش" في اللغة العبرية، والذي يحمل في طيّاته أكثر من معنى، منها البحث المُتأنّي والاستفسار والطلب، وتظهرُ اشتقاقاً كثيرة لهذا الفعل على نحو مُتكرر في الكتاب اليهودي المُقدس. كما أن التفاسير المِدراشية والقراءات الحاخامية للنصوص الدينية تهدفُ إلى البحث عن القيمة الموجودة في النصوص والكلمات والحروف أيضاً، وهي تعتمدُ التفاسير المِدراشية على أسلوب طرح الأسئلة حول النصّ الديني، وفي بعض الأحيان تُجيبُ على تلك الأسئلة، وفي أحيان أخرى تتركُ المجال مفتوحاً أمام القارئ ليُجيب عنها بنفسه. والتفسيرُ المِدراشي يُعدُّ نهجاً يهودياً مُميزاً، فهو لا يُحاول فهمَ الكلمات الموجودة في النصّ الديني وما وراءه من أفكار فحسب، بل يذهب بعيداً ليتطرّقُ إلى ما هو غيرُ موجودٍ في الآية، أي كل حرف وكل كلمة لم تُذكر في هذا النصّ. إن الأسلوب المِدراشي يتضمّن تفسيراتٍ قديمة للتوراة المكتوبة والشفهية (القوانين والمناسك الدينية التي انتقلت بالمشافهة)، بالإضافة إلى الكتابات الحاخامية التي لا تتمحور حول القوانين (أعاداه) أو التشريعات الدينية اليهودية (الهلاخاه) التي تجسّدُ بالعادة تفسيراً مُكتملاً لتفسير نصوص معيّنة من الكتاب اليهودي المُقدس (التناخ).

إِنَّ الْإِيمَانَ قَائِمٌ بِالْأَسَاسِ عَلَى الْجُرْأَةِ فِي قَبُولِ الْمَخَاطِرِ، عِلْمًا بِأَنَّهُ "إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لَا أَحَافُ شَرًّا، لِأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي. عَصَاكَ وَعِصَاكَ هُمَا يُعَزِّيَانِي" مثلما تذكر الآية الرابعة من المقطع الثالث والعشرين من سفر المزامير. لقد كان الإيمان ركيزة أساسية لتحدي الأمم والشعوب قديماً، تلك الشعوب التي شكَّلت إمبراطوريات عظيمة في ذلك الوقت. لقد كانت عقيدة اليهود الراسخة وإيمانهم القوي أساساً لبقائهم مُتَشَبِّثِينَ بديانتهم اليهودية في العهد الهلنستي القديم، خاصة وأن اليهود كانوا أقلية مُعزلة وضيئلة جداً مُقارنة بالعديد من أعتى الثقافات وكبرى الحضارات البشرية، مثل الحضارة الإغريقية وإمبراطورية إسكندر المقدوني وغيرها.

كما كان الإيمان هو اللبنة الأساسية التي استند عليها الحاخام يهوشوع بن جَملا في القرن الأول للميلاد لتأسيس أول منظومة تعليم إجبارية في العالم (بحسب ما يذكر مُجلد بافا بتره، وهو أحد الكُتُب التلمودية، في الصفحة 21 أ)، تماماً مثلما كان الإيمان ركيزة استند عليها الحاخام يوحنا بن زكاي حين أدرك أن بمقدور العقيدة اليهودية أن تمضي قُدماً وتظل باقية على الرغم من فقدان اليهود لهيكلهم وفقدانهم للدولة اليهودية المُستقلة فوق أرض إسرائيل، وذلك في ظل ثقافة يهودية تعليمية ومنظومة دراسة دينية راسخة ومُتواصلة عبر مَرَّ العصور.

ولا يزال امتداد روح الدراسة والعلم اليهودية حاضراً بين اليهود حتى في وقتنا الحالي، على الرغم من أن نسبة لا يُستهان بها من أبرز العقول والعلماء والمُفكرين اليهود قد تخلوا عن ذلك الإيمان. إذ كيف لنا أن نفسر حقيقة أن تلك الأقليات اليهودية الضئيلة جداً في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية قد أنجبت عدداً كبيراً من العلماء والمُفكرين اليهود ممن صاغوا العقلية الإنسانية المُعاصرة وأسهموا في بنائها وتقدمها إلى حدٍ كبير، فكان كلُّ منهم رائداً في مجاله بطريقة إبداعية مُميّزة، فعلى سبيل المثال نجد ألبرت أينشتاين أحد أبرز رواد علم الفيزياء، وإميل دوركايم في علم الاجتماع، و كلود ليفي ستروس في علم الإنسان، وغوستاف مالر/مهيلر وأرنولد شوينبيرج في مجال الموسيقى، هذا عدا عن عددٍ كبير من كبار علماء وخبراء الاقتصاد على مستوى العالم من أمثال ديفيد ريكاردو صاحب نظرية الميزة النسبية، وجون فون نيومان صاحب نظرية اللعبة، وملتون فريدمان صاحب النظرية النقدية المُعاصرة، ودانيال كاهنمان وعاموس تفيرسكي الذين يُعتبران من رواد مجال الاقتصاد السلوكي، وغيرهم الكثير في سبب المجالات.

كما أننا نجد العلماء والمفكرين اليهود من بين عمالقة مجال علم النفس والطب والتحليل النفسي، بدءاً من فرويد وطلّابه، مروراً بشيكاتور فرانكل صاحب البصمة العظيمة في مجال العلاج بالمعنى، وأرون ت. بيك الذي يعتبر رائداً في مجال العلاج المعرفي السلوكي، ومارتن سليجمان الرائد في مجال العلاج النفسي الإيجابي. ولو نظرنا إلى عالم هوليوود السينمائي لرأينا أن غالبية روادها هم أيضاً من اليهود، أضف إلى ذلك البصمة المُميّزة لليهود في مجال الفن والموسيقى، بدءاً من إرفينغ برلين وجورج جيرشوين اللذان يُعتبران من رواد العروض الموسيقية الأمريكية، إضافة إلى بوب ديلن وليونارد كوهين واللذان يُعتبران من أبرز كُتّاب ومؤلفي الأغاني الشعبية في القرن العشرين.

في المُقابل، كان لهؤلاء الرواد المُبدعين نصيبهم من النقد والاستهزاء والازدراء والمعارضة، وهذا بلا شك هو قدرُ العُظماء المُبدعين دوماً. فحتى تكون رائداً في مجال مُعيّن فإنه ينبغي عليك أن تُهيء نفسك لتكون وحيداً، ففي أحسن الأحوال سيُساء فهمك، أما في أسوأ الأحوال "سيقدفك الناس بالحجارة". ويقول أينشتاين في هذا السياق: "في حال تتوجت نظرتي النسبية بالنجاح فإن ألمانيا ستدعي بكل فخر بأبي مواطن ألماني، أما فرنسا فستدعي أنني ابنٌ للبشرية جمعاء. لكن لو قُبلت لكانت فرنسا ستلفظني مُدعيةً بأني مواطن ألماني، أما ألمانيا فكانت ستقولُ بأني مُجَزّد شخص يهودي". بالتالي حتى تكون ريادياً عليك أن تكون جاهزاً للمضي قُدماً في رحلة التيه نحو المجهول، وهذا ما علمتنا إياه تجربتنا اليهودية الطويلة عبر مَرَّ العصور.

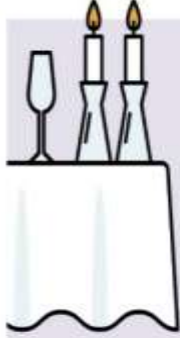
لقد امتلك الصهاينة الأوائل إيماناً قوياً وعقيدة راسخة، وأدركوا منذ البداية بأن عهد التنوير والتحرّر في أوروبا لم يكن فعلياً بالمعنى الذي تحمله تلك الكلمات على الإطلاق، فعلى الرغم مما رافق تلك الحُقبَة من ثورات فكرية وعلمية وسياسية في كافة مظاهر الحياة في أوروبا، إلا أنه لم يكن فيها أي مُتّسعٍ لتقبّل اليهود، وهذا بالفعل ما أدركه بعض الصهاينة الأوائل خلال ستينيات القرن التاسع عشر، فيما أدركه بعضهم الآخر لاحقاً من أمثال هرتزل بعد قضية دريفوس* وأدركه بعضهم بعد أحداث العنف التي تعرّض لها اليهود خلال ثمانينات القرن نفسه. وبالنسبة للصهاينة الأوائل فقد كان بعضهم مُتديناً وبعضهم الآخر علمانياً غير مُتدين، إلا أن القاسم المُشترك بين كلا المتدينين والعلمانيين الصهاينة هو إدراكهم للفكرة التي وضّحها مدرّش تنحوما: عندما يتعلّق الأمر بإعادة بناء عالمٍ مُحطّمٍ ومُنكسرٍ فلا تنتظروا إذنا من السماء، لأن الله يقول لكم امضوا قُدماً دون أدنى تردّد.

لكن هذا المبدأ لا يعني وجود ضوء أخضر يسمح لنا بأن نفعّل ما يحلو لنا دون حسيبٍ أو رقيب، خاصة وأن الإبداعات والابتكارات لا تستخدم جميعها بهدف البناء، بل على العكس تماماً، إذ قد يُستخدم بعضها لتنفيذ غاياتٍ هدامة، إلا أن مبدأ "سير أمامي" الذي يريدنا الله أن نفهمه - باعتبار أننا البشرُ نُجسّدُ أعظم مخلوقاته - هو مبدأ يجعل العقيدة اليهودية فريدة جداً، كونها تُؤكّد على ضرورة التزام الفرد بهذا المبدأ بحسب قدرته وحسب ما تملّيه عليه ظروفه.

بالتالي، ومثلما ذكرتُ سابقاً، فإن الإيمان يعني الجرأة في تحمّل المخاطر في سبيل الله عزّ وجلّ وفي سبيل الأمة اليهودية جمعاء، إنه يعني ترحال المرء لمسافات طويلة رغم علمه مُسبقاً بأن طريق الترحال محفوفٌ بالكثير من المخاطر. لكن في المُقابل يجب أن يُدرك المرء أنه في خضمّ تلك المشقّات والصعاب فإن الله معه وسيمنحه القدرة والقوّة على المضى قُدماً إذا ما كانت نيّته تتماشى مع مشيئة الله عزّ وجلّ. بمعنى آخر: الإيمان لا يعني اليقين بقدر ما يعني الجرأة على الحياة مع الشكّ واللايقين.

*ملاحظة توضيحية من المُترجم: وُلِدَ ألفريد دريفوس في التاسع من شهر تشرين الأول/أكتوبر عام 1859م وتوفّي بتاريخ الثاني عشر من شهر تموز/يوليو سنة 1935م، وكان ضابطاً في سلاح المدفعية الفرنسي وينحدر من أصول يهودية، تحديداً من منطقة أُرّاس. كانت مُحاكمته وإدانته بالخيانة سنة 1894م واحدة من أكثر الأحداث السياسية استقطاباً ومأساوية في التاريخ الفرنسي المُعاصر والتي صارت تُعرف باسم "قضية دريفوس". كان لهذه القضية صدى واسع في أوروبا، وانتهت بتبرئة ألفريد دريفوس من التهم المنسوبة إليه. بدأت القضية بتسريب معلومات تتعلق بقطع جديدة لسلاح المدفعية الفرنسي إلى المُلحق العسكري الألماني في باريس من خلال أحد الجواسيس، والذي يُعتقد بأنه كان من الرتب العُليا في رئاسة أركان الجيش الفرنسي. وعلى الفور بدأت الشكوك تحوم حول ألفريد دريفوس الذي اعتُقل إثر ذلك بتهمة الخيانة بتاريخ الخامس عشر من شهر تشرين الأول/أكتوبر سنة 1894م. وبتاريخ الخامس من كانون الثاني/يناير سنة 1895م وبُنْتى السرعة تمت إدانة ألفريد دريفوس بتهمة الخيانة خلال محكمة عسكرية سرية، كما تم تجريدته من رتبته العسكرية في الجيش وحُكّم عليه بالسجن مدى الحياة في جزيرة الشيطان في منطقة غويانا الفرنسية. وفي شهر آب/أغسطس من عام 1896م قام الرئيس الجديد لاستخبارات الجيش الفرنسي القريب كولونيل جورج بيكار بإرسال تقرير إلى قيادته موضحاً بأنه وجد دليلاً يُثبت بأن الخائن كان الزائد فرديناند والسين إستراهزي وليس ألفريد دريفوس، لكن تم إسكات الكولونيل جورج بيكار عبر نقله ليخدم في قوات المشاة الموجودة في منطقة سوسة التونسية في شهر تشرين الثاني/نوفمبر سنة 1896م. وعندما تسرّبت تقارير إلى الإعلام حول مُحاولات الجيش لإخفاء احتمالية براءة ألفريد دريفوس انتشر جدلٌ واسعٌ حول معاداة السامية والهوية الحقيقية لفرنسا: فهل هي دولة لشعبٍ كاثوليكي أم جمهورية أقيمت على أساس الحقوق المتساوية لجميع مواطنيها. وبفضل الرأي العام عرض الرئيس الفرنسي آنذاك إيميل لوبيه عفواً عاماً على ألفريد دريفوس، وقبله وتم إطلاق سراحه عام 1899م. لكن هذا العفو كان بمثابة تنازل من قبل الجيش حتى لا يعترف بالخطأ الفاضح الذي اقترّفه بحق دريفوس والذي كان سيعود لجزيرة الشيطان لو لم يقبل بهذا العفو، وهو حكّم لم يكن قادراً على إكماله أو التعاطي معه عاطفياً، بالتالي ظلّ دريفوس خائناً رسمياً لفرنسا بالرغم من إطلاق سراحه. وبتاريخ الثاني عشر من شهر تموز/يوليو عام 1906م قامت لجنة عسكرية بتبرئة ألفريد دريفوس رسمياً من جميع التهم المنسوبة إليه بعد مضي اثني عشر سنة على إدانته بتهمة باطلّة، وعاد إلى الجيش الفرنسي وتمت ترفيقته ليحمل رتبة رائد (Chef d'Escadron).

1. يبدو أن المدرّش يستند إلى حقيقة أن الآية الأولى في التوراة قد استخدمت الفعل "قَمِيدَبَر" والمشتقّ من الفعل دَبَبَر. باللغة العبرية (والذي يعني قال أو تحدّث باللغة العربية). إن الجذر العبري أ.م.ر (بمعنى قال) يتضمّن معنى شبيهها للفعل الأول، لكن هنالك فرق بسيط بين الفعلين، حيث أن الفعل "قَبَر" عادة ما يعبر عن الأحاديث شديدة اللهجة التي تتضمّن أحكاماً مُسبقة قد يُطلقها النَّاسُ جزافاً. أنظر أيضاً إلى تفسير الحاخام ابن عيزرا فيما يتعلق بهذه النقطة، والذي يرى بأنه تبعاً للنص التوراتي فإن نوح كان مُتردداً بالنسبة لمسألة خروجه من الفلك (السفينة).



حَوْلَ مَائِدَةِ يَوْمِ السَّبْتِ الْمُقَدَّسِ: أَسْئَلَةٌ لِلتَّأْمُلِ

- 1- باعتقادك لماذا كان نوح ينتظر الإذن من الله عز وجل لمغادرة الفلّك؟
- 2- ما هو النداء الذي تعتقد بأن الله عز وجل يوجهه لك بخصوص ما يجب عليك القيام به مُستقبلاً؟
- 3- باعتقادك أي هذين الأمر يقوّي الإيمان أكثر من الآخر: التحليّ بالإيمان في حالة من اليقين ومعرفة الإجابة لكل سؤال، أم التحليّ بالإيمان في ظل حالة من الشك واللايقين

- These questions come from this week's Family Edition to Rabbi Sacks' Covenant & Conversation. For an interactive, multi-generational study, check out the full edition at <https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation-family-edition/noach/the-courage-to-live-with-uncertainty/>

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University*

